المستمر بين القبائل وعاداتهم الاجتماعيـــة المتخلفة ــ مثل احتقار النساء ووأد البنات والتعلق الشديد بالثأر والتبجح الفارغ.(٢) ويقارن كل ذلك بأوضاع العرب بعد اعتناقهم الدين الاسلامي . ولم يكن تحويل العرب الى كيان سياسي متماسك هو أقـــل التأثيرات النافعة للدين الجديد . وبالنسبة الى دروزة فان العوامل الرئيسيـــة التي ساهمت في تحويل العرب الى كيان سياسي متماسك تستمد جذورها من الدين الاسلامي . والعرب مدينون للقرآن في حفظ لغتهم بشكل سليم اذ لولاه لكانت اللغة العربية انقسمت الى عدة لغات محلية كما هو الحال بالنسبة للغات الرومانسية (المشتقة من اللاتينية) .
وللاسلام يدين العرب بحضارة بارزة في العصور الوسطى كان للاعتزاز بها مكان هام بين القوى التي توحد العرب في الحاضر وتشدهم الى بعضهم بعضا.(٣)
كان التسامح الديني نحو المسيحيين واليهود قسما هاما من التعاليم الاسلامية ، كما يرى دروزة. فقد ميز الرسول محمد بين الديانات السماوية والديانات غير السماوية، وقصد بالاولى تلك الديانات التي كان لها كتاب مقدس اي المسيحية واليهودية. ودعا المسيحيين واليهود بأهل الكتاب وتركهم أحرارا ليمارسوا اعتقاداتهم وقوانينهم الخاصة . اما غير المؤمنين الاخرين فكان عليهم ان يقبلوا الدين الاسلامي او يتعرضون للهلاك . ان مثل هذا الموقف ، بحسب دروزة ، يفسر علاقات الصداقة التي تطورت بين العرب المسلمين وغير المسلمين والذي مكن العرب المسيحيين واليهود من أن يلعبوا دورا هامـــا في الحضارة العربية وان يصبحوا بالتالي جزءا لا يتجزأ من الامة العربية .
وأخيرا فان الدين الجديد قد منح العرب احساسا بالغاية والتزاما بالواجب. ولقد دفعهم ايمانهم بضرورة نشر الدعوة الجديدة الى ان يبدأوا حركـــة توسعية ادت الى اقـــامة امبراطورية شاسعة . وكذلك رأوا مـــن واجبهم ان يقووا تعاليم الاسلام وان يظهروا تساوي جميع المسلمين بنظر الحكام . ولقد تجلى مثل هذا الموقف عند النبـــي والخلفاء الراشدين الذين خلفوه في ادارة شئون المسلمين .
ان القوة النامية للقومية العربية وتكوين جامعـــة الدول العربية والاتصال المتزايد بين دروزة والمؤرخين العرب قد أدى به الى تغيير آرائه حول التاريخ العربي . فأصبح داعية لوحدة التاريخ العربي واعتبر الاسلام كنتاج لعبقرية العرب يمثل أحد الأطوار في تاريخهم الطويل . وهذا التغيير في النهج يظهر جيدا في كتابه **حول الحركـــة العربية الحديثة**(٤). ولكي يثبت الرسالة التاريخية للعرب ارجع دروزة في كتابه هذا اصلهم الى المدى الذي استطاعه في الماضي البعيد . وأسهم في آراء مدرسة جديدة من المفكريـــن العرب الذين ادعوا ان كلمتي عرب وساميين تعنيان الشيء ذاته. وكان سامي شوكت الذي كان مديرا للتعليم في العراق في أواخر الثلاثينات هو أول من أدخل هذا الرأي . وقد ذهب شوكت الى القول بأن كل الشعوب التـــي حملت علم الحضـــارة في الشرق الاوسط القـــديم ــ كلدانيين واشوريين واسرائيليين وحتى فراعنة مصر الحاميين ــ كانت عربية . لم يذهب دروزة الى ذلك المدى : فبالنسبة اليه هناك ثلاث مجموعات عرقية احتلت صورة الشرق الاوسط القديم هـــي العرب الساميون والحاميون والهنـــود ــ الاوروبيون.(٥) وبحسب هذه النظرية ، فقد مثل الاسلام الحلقة الاخيرة ، الاكثر اهمية ودواما في رسالة العرب التاريخية . ورافق نشر الدين الجديد انتشار ثقافة جديدة . ان هذين العاملين قد أوجدا وعيا عرقيا لم يختف من الاماكن التي كان لهما فيها جذور عميقة .
لقد خصص دروزة معظم الجزء الثاني من تأريخه للحركة القومية للتحري عـــن تطـــور هذا الوعي العرقي عبر مراحل التاريخ العربي الاسلامي المختلفة . فوته أيام الامويين وانحساره أيام العباسيين ثم يقظته من جديد أيام الصليبيين . أما فترة الحكم العثماني فان دروزة لا يرى شيئا سوى الركود السياسي والهجوع الثقافي .
وكمعظم المؤرخين العرب فان دروزة يعتقد ان وعي العرب القومي ، بالمعنى الحديـــث